الفصل السادس

الثقافة، والترجمة، والتواصل
CULTURE, TRADUCTION ET COMMUNICATION

(١) ترجمة الثقافة

إن مفهوم الثقافة مهم في مجال التواصل متعدد اللغات لأنه يساعد على تصور وحدة الإنسانية في تنوعها بعبارات تختلف عن العبارات البيولوجية. ويقدم هذا المفهوم أكثر الأجوبة شفاء لمسألة الاختلاف بين الشعوب. فالإنسان في جوهره كائن ثقافي، وكل ما يقوم به مشبع بثقافته. ويُعد إدراك هذا الأمر مفتاحاً لمقاربة الاختلافات والتشابهات الثقافية بين الكائنات الإنسانية.

يتميز التأمل في مفهوم الثقافة في العلوم الإنسانية والاجتماعية بعدة توجهات. ويمكن تحديد هوية مدرستين أساسيتين تجمعان بين مختلف المفاهيم الحالية للثقافة. والمدرستان إرث من القرن التاسع عشر: هناك، من جهة، المفهوم الفرنسي culture، الذي يعبر عن نزعة إنسانية وعمومية؛ ومن جهة أخرى، المفهوم الألماني kultur، الذي يعبر عن نزعة عرقية وخصوصية particulariste.

يسعى مفهوم الثقافة الألماني إلى إبراز كل ما يخص شعباً ما، وما يميزه عن الشعوب الأخرى. إن هذه الحاجة إلى التخصيص ناجمة عن انفصال سياسي يريد المفكرون الألمان التغلب عليه من خلال وحدة ثقافية. وأما في فرنسا، فالوحدة

السياسية أمر مقرر ولا حاجة لتعزيزها، الأمر الذي يفسر كيف أن أفكار التنوير والثورة الفرنسية طبعت المفهوم الفرنسي بطابعها مركزة على صفته الإنسانية، وذلك في إطار رؤية شاملة وكونية

خلاصة القول: إن الاتجاه الخصوصي الذي تسوده فكرة الاختلاف diversité يؤكد أنه لا توجد ثقافة واحدة وإنما عدة ثقافات قومية، بينما يؤكد الاتجاه العمومي الذي يعلي من شأن الوحدة أن التنوع مظهر من مظاهر وحدة الثقافة الإنسانية. ويفضل البعض ممن تأثروا بهذين الاتجاهين الثقافة من دون اعتبار الاختلافات بين المجموعات الإنسانية، بينما يتمسك آخرون بالاختلافات التي تقودهم للكلام على ثقافات مختلفة، لا بل عدوة.

لقد طبعت مختلف إستراتيجيات التواصل متعدد اللغات بأحد هذين المفهومين. ويمتدح البعض توحيد الثقافة إيماناً منهم بثقافة كونية توحد الكائنات الإنسانية؛ بينما لا يؤمن البعض الآخر بهذا التوحيد وذلك بسبب وجود عدة ثقافات ومجموعات ثقافية. وهكذا يتبنى المرء منهجاً تواصلياً معيناً حسب تصوره للثقافة. وهذا صحيح كما رأينا، ليس فقط بالنسبة إلى تكييف الإعلانات ولكن أيضاً بالنسبة إلى توطين مواقع الويب التجارية والمؤسساتية.

تمر هذه المناهج العملية غالباً بمقاربتين تصوريتين للثقافة تبدوان متناقضتين، ولكنهما متكاملتان للغاية. يتعلق الأمر بالعرقية ethnocentrisme[1] وبالنسبية relativisme. يتمحور الجدل إذن حول مفهومي ترتيب الثقافات في طبقات ورفض كل نوع من الترتيب. ولكن التوفيق بين المفهومين باعتبارهما مبدأين منهجيين ممكن، ويساعد على اندماج "الثقافة" اندماجاً أفضل في عملية التواصل متعدد اللغات.

---

[1] نزعة في الإنسان لرفع شأن قومه وبلده. (المترجم).

يتصور التقليد الفرنسي الفرد كائناً يميل طبيعياً لأن يكون "عرقياً"، أي مدركاً لخصوصيات ثقافية تجعل منه جزءاً من ثقافة متميزة عن الثقافات الأخرى. ولكن ينبغي ألا يكون هذا الإدراك مرادفاً لأي ترتيب ثقافي مقترن بالعرقية غالباً. ففي حين أن النظرة العرقية تميز في الواقع ضمن مجموعة من الثقافات ثقافة "متفوقة" أو "أفضل"، نجد أن النظرة النسبية تسعى إلى تحديد هويتها من دون ترتيبها، ومن دون محو الاختلافات الثقافية. إن الثقافة تقوم دائماً على نظام، وليست أبداً مرتبطة كلياً أو مستقلة كلياً، حتى عندما تكون "خاضعة" سياسياً واقتصادياً (غرينيون وباسرون Grignon et Passeron، ١٩٨٩م). وإن كان ينبغي معرفة تقدير الارتباط، أو بالأحرى الترابط، فإنه ينبغي أيضاً، بفضل تطبيق دقيق للمبادئ المنهجية، معرفة الاستقلال الذي يميز كل نظام ثقافي.

إن هذين المفهومين، أي "النظرة العرقية" و"النسبية الثقافية"، يمكن أن يساعدا على دراسة الثقافات بتوازن ليس من السهل دائماً بلوغه، لاسيما في مجال التواصل الذي يسعى لأن يكون فعالاً. وإن توضيح مفهوم الثقافة يمر أيضاً عبر تحديد علاقات الثقافة باللغة التي تحتضنها. وإن الآراء عديدة في هذا الخصوص ومتباعدة بالنسبة إلى التأثير الذي يمكن أن تمارسه إحداهما على الأخرى ("الثقافة" و"اللغة").

وإن أعمال سابير وورف Sapir et Whorf، في مجال العلاقات بين الثقافة واللغة، هي من أكثرها شهرة، وقد أثارت دراسات عديدة. ولن أعود إلى هذه النظريات، ولكنني سأتوقف عند فكرة أساسية تقول بوجود علاقة قوية جداً بين اللغة والثقافة في الخطاب (كاتان Katan، ١٩٩٩م). وإن كانت كل لغة تملك طريقة خاصة بالتعبير عن الثقافة والمفاهيم – لكل لغة مفرداتها وتراكيبها وقواعدها – فإن ذلك لا يعني أنها لا تستطيع تصور مفاهيم ثقافات أخرى وأفكارها، وفهمها، وحتى التعبير عنها.

هناك في هذا الصدد معسكران مختلفان: يرى البعض أن اللغة تؤثر في الثقافة وتساعدها ليس فقط على وصف الواقع وإنما أيضاً على نمذجته؛ ويعتبر البعض الآخر أن اللغة تعكس الثقافة، وأنها ناطق فعلي باسم تجلياتها وقيمها، ووسيط من جملة وسطاء آخرين. وهكذا، لا يمكن إنكار العلاقات بين اللغة والثقافة، ولكن اللغوي والثقافي يبدوان حقلين متميزين، ومستقلين عن بعضهما بعضاً (لادميرال وليبيانسكي Ladmiral et Lipianski، ١٩٨٩م: ص ٩٧).

إن اللغة لا "تعبر فقط" عن واقع موجود مسبقاً، وهي أيضاً الحقل الذي يتشكل فيه هذا الواقع. وهي طريقة مفضلة للوصول إلى الثقافة، ليس فقط لأنها تقدم لنا صورة عنها، ولكنها أكثر من ذلك لأنها تسعى إلى إنتاجها (لادميرال وليبيانسكي Ladmiral et Lipianski، ١٩٨٩م: ص ١٠١).

يمكن، انطلاقاً من التوضيحات السابقة، تحديد "قاسم ثقافي مشترك" لكل مجتمع، وهي ثقافة أكبر عدد من الأفراد تم اكتسابها بتأثير الآخرين، في إطار العلاقات العائلية والاجتماعية، ولكن أيضاً من خلال وسائل الإعلام، سواء بالتوضيح، والاستيعاب، والتشبع، والتقليد، أو أيضاً بالتلقين.

يطلق غاليسون Galisson على هذا القاسم الثقافي المشترك اسم "شحنة ثقافية مشتركة" Charge Culturelle Partagée (.C.C.P). وتُعرّف هذه الشحنة بأنها "القيمة المضافة" للدلالة العادية للكلمات. وهي غير مفهرسة في القواميس اللغوية، ولكنها تنتمي إلى المجال التداولي: إنها تتعلق بالعلاقة التي تبنيها العلامة اللغوية مع مستخدميها وليس مع علامات اللغة الأخرى (غاليسون Galisson، ١٩٨٧م: ص ١٣٤).

يمكن أن يؤمن مفهوم "الشحنة الثقافية المشتركة" دخولاً عملياً إلى مجال الترجمة والتواصل متعدد اللغات. إن أكثر الناس، باستثناء ثنائيي اللغة، تعلموا لغة

أجنبية من دون التركيز على القيمة الثقافية. ومن هنا جاءت النصيحة الشائعة جداً بالعيش لفترة معينة في بلد اللغة الأجنبية بهدف فهمها فهماً أفضل.

إن اختلاف اللغات الثقافي، المهم على وجه الخصوص لنجاح الترجمة والتواصل، يُفسر بسهولة بسبب موضوعية المدلول وذاتية الشحنة الثقافية المشتركة: "إن موضوعية المنهج الدلالي وذاتية المنهج التداولي يفسران إذن جيداً أن علامات متعادلة في لغتين مختلفتين (وتلجأ بالتالي إلى تفصيل découpage الواقع الطبيعي نفسه، أي إلى الإحالة référent نفسها)، يمكن أن يكون لها مدلولات signifiés متطابقة وشحنات ثقافية مختلفة. مثال ذلك أن كلمة "بقرة" vache لها على الأرجح المدلول نفسه في الهند وفي فرنسا (أنثى الثور)، ولكن ليس الشحنة الثقافية المشتركة نفسها: البقرة "محمية" لأنها "مقدسة" في الهند، في حين أنها "تُستغل" في فرنسا لأنها "مفيدة للغذاء" (غاليسون Galisson، ١٩٨٧م: ص ١٣٨).

وهكذا، لا يعني أبداً وجود كلمات متعادلة في عدة لغات، أي لها مدلولات متطابقة، أن الشحنات الثقافية المشتركة تتوافق. ومن هنا جاءت صعوبة ترجمة الرسائل التواصلية من لغة لأخرى.

(٢) التواصل بين الثقافات

يساعد ذكر التواصل بين الثقافات هنا على إبراز الجانب الحيوي للثقافة، المهم على وجه الخصوص للترجمة. وإن العلاقات والمبادلات بين الثقافات المختلفة تساهم في تكوينها وتطورها المتبادل. بيد أن المهم في التواصل الثقافي هو على الأصح مجاله التفاعلي، في مقابل المجال المقارن لدى اللساني (لادميرال وليبيانسكي Ladmiral et Lipianski، ١٩٨٩م: ص ١٠).

يثير التواصل بين الثقافات صعوبات لأنه يتجاوز المعرفة اللغوية. والواقع أن اللغة ليست "قمة الجبل الجليدي المغمورة" (كاتان Katan، ١٩٩٩م). وإننا نعتقد غالباً أن عدم تكلمنا اللغة نفسها هو العائق الوحيد الذي يمنعنا من التفاهم، في حين أن إتقان لغة أجنبية لا يضمن بمفرده التفاهم بين أناس مختلفي الثقافات إن لم يصاحبه معرفة الثقافة المعنية.

ولهذا السبب لا يمكن أن يتم تكييف التواصل من دون اعتبار جدي لمختلف الجوانب الثقافية المتعلقة بالموضوع: "ينبغي أولاً إدراك أن المقصود بالتواصل بين الثقافات العلاقات التي تنشأ بين أشخاص أو مجموعات تنتمي إلى ثقافات مختلفة. فالمهم هنا هو الفعل العلائقي حتى وإن أدى إلى خلفية من التصورات، والقيم، والقوانين، وأساليب الحياة، وأنماط التفكير الخاصة بكل ثقافة" (لادميرال وليبيانسكي Ladmiral et Lipianski، ١٩٨٩م: ص ١١).

يفسر ذلك سبب اهتمام المعلنين بمختلف "الأساليب القومية": إنها مرآة الثقافات المحلية (مواج Mooij، ١٩٩٨م). ولكن، ليكون هناك تواصل فعلي بين الثقافات، ينبغي على المترجم أن يوضح أحياناً قيماً وإحالات ثقافية، وأيديولوجية، وظرفية، ووجودية، لأن "اللغة ليست مجرد أداة للتواصل؛ إنها أيضاً تعبير عن الهوية الثقافية" (لادميرال وليبيانسكي Ladmiral et Lipianski، ١٩٨٩م: ص ١٧).

يرى العالم الإناسي الأمريكي إدوارد ت. هيل Edward T. Hall أن كل ثقافة تمتلك نظام عمل خاص بها. تُفسر صعوبة معرفة النظام الخاص (الضمني والفطري) بكل ثقافة بحقيقة أنها لا تنكشف فعلياً إلا من خلال مقارنتها بالأنظمة الأخرى. وقد قادت هذه الملاحظة هيل إلى دراسة مختلف أشكال التواصل في عدة ثقافات. استدل هيل في دراسته على التحكم بالسياق والزمان والمكان في كل ثقافة.

تساعد هذه المعالم على تحديد نمطين أساسيين من الثقافات وفقاً لمميزاتها السياقية والزمانية–المكانية. يتم التواصل في كل ثقافة في سياق غني نوعاً ما حسب درجة توضيح الرسالة. يعني ذلك أن رسالة قليلة الوضوح غنية سياقياً، وأن رسالة واضحة جداً فقيرة سياقياً. يدور الكلام عندئذ على ثقافات غنية السياق وثقافات فقيرة السياق (هيل Hall، ١٩٧٩م).

يرى هيل بذلك أن معظم الثقافات الآسيوية غنية السياق، وأن الثقافات الغربية فقيرة السياق، ولكن كل ثقافة فريدة في نظام الإحالة الخاص بها. وهكذا تتصدر الصين واليابان على سبيل المثال قائمة دول "السياق الغني"، بينما تأتي ألمانيا وسويسرا والولايات المتحدة في مقدمة دول "السياق الفقير". ومن الثقافات الغربية "غنية السياق" ثقافات جنوب أوروبا، وذلك على العكس من ثقافات الشمال.

يشير مقياس هيل إلى اتجاهات كبرى أكثر من إشارته إلى حقائق تواصلية. وإن ذكر الاتجاهات يعني أنه لا توجد ثقافات غنية السياق أو فقيرة السياق كلياً. ويتم التواصل في سياق غني نوعاً ما حسب المجالات، والأوساط، والمتكلمين. هذه على سبيل المثال حالة السياق الثقافي الفرنسي: "لم يكن أبداً من السهل جداً على الأوروبيين في الشمال أو الأمريكيين أو الإنجليز فهم الغاليين Gaulois. ربما لأن الثقافة الفرنسية خليط معقد من المؤسسات والمواقف التي يعتبر سياقها غنياً أو فقيراً بالتناوب. وإنه ليس من الممكن دائماً بالنسبة إلى الأجنبي أن يهتدي إلى طريقه فيها" (هيل Hall، ١٩٧٩م: ص ١٠٩).

إن إدراك رسائل سياق فقير في الثقافات الأجنبية أكثر سهولة من إدراك الرسائل غنية السياق. فالرسائل الأخيرة راسخة رسوخاً عميقاً في مضمرات لا يدركها ويفهمها كلياً إلا أفراد الجماعة الثقافية أو "المعتادون عليها"، وتختلف عن رسائل السياق الفقير الأكثر مباشرة والخالية من الغموض.

وإن هذه الاختلافات السياقية مفيدة جداً لتحقيق التواصل اللفظي وغير اللفظي. وقد تم لهذا السبب إجراء عدة دراسات لإعلانات دولية أخذت بعين الاعتبار سياقات هيل، لاسيما تحليلاته المتعلقة بالأبعاد الثقافية للزمان والمكان.

وهكذا يتغير مفهوم المكان من ثقافة لأخرى، ما يشكل عائقاً أمام التواصل. يقدم هيل على سبيل المثال عادة العمل في مكتب مغلق الباب لدى الألمان، وذلك على العكس من زملائهم الأمريكيين الذين يرون أن الباب المغلق قد يعني أنهم سيئو المزاج أو منزعجون من أمر ما (هيل Hall، ١٩٦٦م).

ينطبق الأمر نفسه على الزمان الذي يتغير الإحساس به أيضاً من ثقافة لأخرى (هيل Hall، ١٩٨٣م). يساعد الاختلاف بين الزمان أحادي الزمن temps monochrone والزمان متعدد الزمن temps polychrone على تمييز الأشخاص الذين لا يقومون إلا بمهمة واحدة من القادرين على القيام بعدة أعمال ومتابعتها في الوقت نفسه. وقد لوحظ وجود علاقة متبادلة بين الثقافات غنية السياق والزمان متعدد الزمن من جهة، وبين الثقافات فقيرة السياق والزمان أحادي الزمن من جهة أخرى. لكن هذه الاتجاهات الزمانية يمكن أن تتغير وفقاً لمجالات الحياة والمواقف التواصلية. هذه هي على سبيل المثال حالة الثقافة اليابانية أحادية الزمن في العمل، ومتعددة الزمن في العائلة.

يتصف نموذج هيل الثقافي بأنه يضفي أهمية كبيرة على الجانب غير اللفظي وغير المحدد في الثقافة، مهما كان البعد المدروس: الأبعاد السياقية، والزمانية والمكانية. ولذلك ينبغي أخذ هذا الطابع الضمني، والخفي، والصامت للتواصل بين الثقافات بعين الاعتبار، الذي يصعب جداً التحكم به، والذي يبدو مع ذلك مهماً جداً للعلاقات بين الثقافات بعامة ولعملية الترجمة بخاصة.

تعتبر المدرسة الهولندية (هوفستيد Hofstede، ومواج Mooij، ويوزيونير Usunier) أن الثقافة تشبه "برمجة ذهنية" تقوم على قيم تم تعلمها في السياق الأصل.

وتوضح أعمالها وجود تداخلات بين المكونات الثقافية وتنظيم الشركات. وقد طبق المبدأ خماسي الأبعاد الذي وضعته بنجاح في التسويق الدولي (يوزيونير Usunier، ١٩٩٩م) وتتكون كل ثقافة قومية في هذا النموذج من أبعاد تقوم على أنظمة من القيم القابلة للتكميم (لتحديد كميتها). فالشبكة التي تساعد على تحديد الهوية تقوم على "خمسة أبعاد كونية":

- التوجه الزماني.
- التحكم بالمخاطر.
- الفارق التسلسلي.
- الذكورة–الأنوثة.
- الفردانية.

تمثل النقاط التي أعطيت لكل دولة وفق هذه الشبكة متوسطاً، لأن أفراد الدولة نفسها ليسوا جميعاً متماثلون في دمجهم هذه الأبعاد. وهكذا، تُظهر الثقافات الآسيوية فيما يتعلق "ببعد التوجه الزماني" زمناً أكثر طولاً للأحداث، يقترن بتقويم للعلاقات بين الأشخاص، بينما تعمل الثقافات الغربية في سياق مقاربة "تصالحية" حيث يضطر الناس بسبب ثقافتهم إلى تفكير قصير الأمد، وإلى الاهتمام قليلاً بالعلاقات بين الأفراد.

وأما بخصوص "بعد التحكم بالمخاطر"، أي الطريقة التي يتناول فيها أفراد مجتمع ما المخاطر، فيلاحظ أن الثقافات لا تنظر إلى المخاطرة بالطريقة نفسها: إن بعضها يشجعها، وإن بعضها الآخر يتجنبها. فالفرنسيون على سبيل المثال يخاطرون قليلاً عندما نقارن سلوكهم في التجارة والأعمال مع سلوك الأمريكيين. ينتج عن ذلك أن المفاوضات التجارية معهم تستغرق وقتاً أطول.

يتعلق "بعد الفارق التسلسلي" بدرجة التفاوت المنتظرة والمقبولة لدى أفراد مجتمع ما: احترام التسلسل بين الرؤساء وموظفيهم، والفارق بين من يتمتع بتأهيل عال ومن لا يحمل أي شهادة. إنه لمن المعروف أن الأمريكيين أقل تعلقاً بالتسلسلات وبمظاهرها الرمزية، وذلك على العكس من الفرنسيين والألمان الذين يولونها أهمية كبيرة.

يساعد "بعد الذكورة–الأنوثة" على قياس الأهمية الممنوحة للتعاون والتكافل والمحيط الاجتماعي (قيم أنثوية)، أو على العكس من ذلك، للطموح، والسلطة، والتملك (قيم ذكورية). ففي المناقشات التجارية، تولي الدول التي تكون فيها الصفة الغالبة ذكورية (الدول الأنجلوسكسونية) أهمية كبيرة للحجج العقلية، بينما تعطي الدول التي تكون فيها الصفة الغالبة أنثوية (مثل الدول الإسكندينافية) أهمية أكبر للحجج العاطفية.

وأما بعد "الفردانية" فيخبر عن تقويم الحرية والاستقلال في بعض المجتمعات. وإن هاتين القيمتين تأتيان في المقدمة في البلدان فردانية الثقافة مثل بريطانيا العظمى، والولايات المتحدة، الأمر الذي يجعل الانفتاح على الخارج طبيعياً أكثر.وبالمقابل، يذوب الفرد في الجماعة في البلدان التي تتمتع بثقافة جماعية قوية، ويشكل حلقة صغيرة بين أعضائها.

تستمر هذه الأبعاد وتظهر في التواصل متعدد اللغات رغم عولمة الاقتصاد والتجارة. إن تحليل العلاقات الثقافية يساعد على توضيح ظاهرة المثاقفة acculturation وليس التوحيد الثقافي. يلاحظ في الواقع أن الإنسانية آلة لصنع الاختلاف. فكل ثقافة، وكل جماعة تصون تحفظها، وتدافع عن هويتها بوضع البضائع المستوردة في سياق جديد. وتشكل أقطاب إبداع ثقافي أخرى بفعالية توازناً في مقابل الإبداع الأمريكي، لاسيما في أوروبا، وآسيا، وأمريكا اللاتينية. وينبغي عدم تبسيط الثقافة ووظائفها

العديدة إلى الصناعات، وإلى سوق المنتجات "الثقافية" [...] إن الخلط بين الصناعات الثقافية والثقافة، يعني اعتبار الجزء كلاً" (وارنييه Warnier، ١٩٩٩م: ص ١٠٦).

يعبر آنهولت Anholt (٢٠٠٠م) عن رأي مماثل، ويرى أن سيطرة الثقافة الأمريكية في التجارة الدولية نتيجة مصادفة محدودة في فترة معينة، هي نهاية القرن العشرين، ولا تهدد ثقافات كوكبنا الأخرى الأكثر قدماً، والأكثر رسوخاً في أرض عمرها أحياناً آلاف السنين: الثقافة الصينية، واليابانية، والهندية، والعربية، وكل الثقافات القديمة التي ينبغي عدم بخس قدراتها على المقاومة واستعدادها للتغير والتكيف.

إن مفهوم الإنسانية المكونة من ثقافات لا تزول بالتأثير في بعضها البعض ماثل أيضا في تحليلات القمة العالمية لمجتمع المعلومات (SMSI, Genève 2003) التي تشجع التنوع اللغوي والثقافي. وإذا كنا في الواقع نعيش في عصر يتميز بزوال الحدود المتزايد، فإن كوكبنا أصبح هذه القرية التي تجعل منا "مواطني العالم". يؤدي هذا الانتماء المشترك إلى ثقافة جديدة في طور الولادة، متشابهة ومختلفة في آن واحد مع الإسهامات الثقافية التي صنعتها، وهي ثقافة التواصل مع الآخر بلغته، وإنما انطلاقاً من سماتنا الخاصة. وباختصار، تسهل الترجمة إمكانية تواصل متعدد اللغات يراعي التنوع اللغوي والثقافي.

ويقدم التواصل المؤسساتي في هذا الصدد أمثلة مفيدة في مجال الصحة العامة. وتساعد دراسة الحالات المقدمة لاحقاً على إدراك إشكالية التعددية الثقافية في التواصل متعدد اللغات.

(٣) التواصل متعدد اللغات والتعددية الثقافية

يشكل مجال التواصل الطبي والتواصل في الصحة العامة أمراً جديداً. ومع ذلك، يشهد هذا التواصل توسعاً دائماً: تشكل إنفلونزا الطيور، والبدانة،

والاكتئاب، والأمراض المرتبطة بالتدخين الكم نفسه من الموضوعات الطبية التي تحاول مختلف الهيئات الوطنية والدولية "التواصل" بشأنها.

والواقع أن التواصل في مجال الصحة العامة أصبح ضرورة. فوراء التواصل "الجيد" تكمن تحديات حقيقية تتعلق بصحة السكان. ينبغي على سبيل المثال القيام بالتوعية لتفادي تهديدات محتملة، وكذا تهيئة السكان. لنفكر بالتواصل حول إنفلونزا الطيور وحول وباء عام. تُدرج موضوعات الصحة بشكل عام في الحملات الإعلانية، وتصبح بذلك أولويات في الصحة العامة على مستوى منطقة أو عدة دول. يتم هذا عبر الإنترنت، لاسيما من خلال المواقع المؤسساتية المخصصة للصحة. وتُطرح عندئذ مسألة إدارة التنوع الثقافي للسكان في تنفيذ حملات التوعية الأساسية هذه.

هناك، بطريقة مبسطة جداً، نمطين رئيسين من التواصل يمكن تمييزهما على الشبكة العالمية:

- التواصل متعدد الثقافات الذي يركز فيه الفاعلون على ما يميز المجتمعات أو مختلف المجموعات الاجتماعية والعرقية المستهدفة.
- التواصل بين الثقافات الذي يركز على ما يوحد بين السكان، والذي يبرز النقاط المشتركة بين المجموعات السكانية والثقافية الأصل.

تؤدي هاتان المقاربتان المتباعدتان إلى اختلافات مهمة على المستوى التواصلي، لأن التنوع اللغوي والثقافي لم يؤخذ بعين الاعتبار بالطريقة نفسها. ولهذا يلاحظ وجود معالجة مميزة حسب البلدان. ولتوضيح هذه التوجهات، سوف أحلل نموذجين رئيسين: النموذج الأمريكي القائم على التعددية الثقافية، والنموذج الفرنسي الذي يستند إلى التواصل بين الثقافات.

(٣,١) النموذج الأمريكي

يراعي نموذج التواصل الأمريكي متعدد اللغات المجموعات اللغوية والثقافية فيعتبرها كياناً علاجياً. ويشكل تصوره الصحي القائم على تقديم خدمات توضيحاً جيداً لأخذ التنوع بعين الاعتبار. إن تقديم الخدمات هذا موجه في الحقيقة للمجموعات السكانية التي تعيش على الأرض الأمريكية، والتي تعتبر متمايزة ومختلفة رغم تكوينها الأمة الأمريكية.

وهكذا، إذا نظرنا إلى الموقع الرسمي الخاص بوزارة الصحة الأمريكية، فيمكننا الملاحظة ابتداء من المسمى "الخدمات الصحية والإنسانية" Health & Human Services مفهوم "الخدمات". إن هذا الخيار التواصلي يكشف عن النظر للصحة من زاوية تقديم خدمات لأشخاص يعتبرون قبل كل شيء زبائن. وعلى العكس من ذلك، ينظر إلى هذه الكلمة بعين الريبة في فرنسا، لاسيما المهنيين في مجال الصحة. وإن كانت "إدارات الزبائن" موجودة حقيقة في المستشفيات الفرنسية، فإن فئة "الزبائن" قليلة الاستخدام في الحياة العملية.

تظهر هذه الفئة في الموقع الأمريكي على الصفحة الرئيسة. ويستخدم موقع وزارة الصحة لذلك التسمية "فئات خاصة من السكان" Specific Populations، التي تستحق اهتماماً خاصاً (يمكن الاطلاع على نسخة من الشاشة على الموقع www.guidere.org).

عندما يصل مستخدم الإنترنت إلى العنوان Specific Populations، فإنه يجد نفسه أمام فئات من الأشخاص مصنفين وفق مختلف أنماط التمييز: تمييز جنسي Gays & Lesbians، وعرقي Ethnic & Racial Minorities، وسياسي Immigrants & Refugees، واجتماعي Homeless، ومهني Agricultural Workers، إلخ.

لا يوجد على مستوى رؤوس العناوين أي مدخل خاص باللغة. وقد وضعت لخدمة مستخدمي الإنترنت نصوص بمختلف اللغات ضمن الفئات الموضوعاتية. وإن كان تنوع المعلومة اللغوي متوفرا فعليا في الموقع فإنه لا يمكن الوصول إليه مع ذلك على الفور.

تساعد دراسة الموقع الحكومي المخصص للنساء (www.womenshealth.gov) على تعميق إشكالية التنوع اللغوي للتواصل. والواقع أن الرسالة الموجهة للنساء اللواتي يعشن على الأرض الأمريكية تقدم مثالاً مهما لتكييف التواصل حسب النموذج الأمريكي نظراً لأن المعلومات تقوم على معايير عرقية.

وهكذا يظهر بوضوح على الشريط العلوي في الموقع الحكومي المخصص لصحة النساء كلمة Minority (أقليات). تخاطب الصفحة الرئيسة "أقليات نسائية" لإعلامها بأمور تتعلق بصحتها Minority Women's Health. إن مختلف الأقليات المستهدفة مفصلة في العمود الأيسر من الموقع. يتضمن هذا العمود تعداداً للفئات العرقية المستهدفة:

"African Americans", "Hispanic Americans / Latinas", "Asian Americans / Pacific Islanders and Native Hawaiians", "American Indian and Alaska Natives".

وتوجد على الصفحة نفسها (أعلى الصفحة) صور نساء توضح الفئات المعنية، فكل صورة ترافق بصرياً إحدى الفئات العرقية المذكورة.

توضح هذه الصفحة من الموقع تواصلاً موجهاً للأقليات، لأن الرسالة تأخذ بعين الاعتبار خصوصيات هذه الأقليات في مجال الصحة. فهناك لكل أقلية من النساء تمييز للإشكاليات الصحية الخاصة، وعلى نطاق أوسع، وللأمراض التي يُصبن بها غالباً.

وهكذا يشير النص في العنوان المخصص للنساء الأمريكيات من أصول أفريقية African Americans إلى أن بعض الأمراض تُصيب تلك النسوة أكثر من النساء بيضاوات البشرة، الأمر الذي يعني حياة أقصر. ويذكر الموقع بالنسبة إلى كل مرض من

هذه الأمراض رابطاً يحيل إلى نص تفسيري أكثر تفصيلاً: السرطان، والسكري، والأمراض القابلة للانتقال جنسياً MST، إلخ.

ينبغي بادئ ذي بدء، لإدراك إشكالية التواصل متعدد الثقافات من زاوية لغوية إدراكاً أكثر دقة، التمييز بين نمطين من اللغات: اللغات التي يتكلمها السكان فعلياً من جهة، أي لغات الجاليات الموجودة، واللغات التي تُترجم إليها من جهة أخرى، أي الجاليات اللغوية التي يستهدفها التواصل متعدد اللغات.

يوجد على سبيل المثال جالية عربية كبيرة في الولايات المتحدة. بيد أننا لا نجد في المواقع الحكومية المخصصة للصحة التي تم تصفحها لغاية هذه الدراسة أي ترجمة إلى اللغة العربية للمعلومات الطبية. فمن وجهة نظر تواصلية بالمعنى الدقيق، لا شيء يبرر التركيز على بعض الجاليات واستبعاد جاليات أخرى. إن وجهة النظر الطبية هنا تسبق الاعتبارات اللغوية والثقافية من دون أن تكون وجيهة بالضرورة.

تؤدي دراسة الموقع المخصص لصحة نساء "الأقليات" مع أخذ مسألة التركيز على بعض الجاليات بعين الاعتبار إلى الملاحظات التالية:

- أولاً: هناك بخصوص فئة "النساء الآسيويات" دليل صحي جيد متوفر على الموقع باللغة الصينية (من دون أية ترجمة إلى اللغة الإنجليزية).
- ثانياً: إن كل النصوص المتعلقة بالنساء الأفريقيات والهنديات محررة بالإنجليزية، ومن دون أي ترجمة إلى أي لغة.
- ثالثاً: إن الموقع بالنسبة للنساء من الأصول الأسبانية متوفر باللغة الأسبانية. وإننا نجد، في الصفحة الرئيسة المتعلقة بالأقليات رأس العنوان "recursos en español" (معين باللغة الأسبانية)، ولكن هذه الصفحة تحيل إلى صفحة مختلفة.

إن التواصل متعدد الثقافات يتجاوز مجرد توفير ترجمة متصلة بالإنترنت للنصوص الطبية إلى لغات الأقليات المعتبرة. وإن تكييف التواصل يتعلق أيضاً بالموضوعات الصحية الموضحة وفق الفئة المستهدفة. وإن مثال النص الذي يخاطب الأمريكيات من أصول أفريقية توضيح جيد: إنه يعدد بالتفصيل الأمراض التي تصيبهن أولياً، ويشرحها.

زد على ذلك أن دراسة مختلف رؤوس العناوين توضح أن إشكالية الانتحار، على سبيل المثال، لا تظهر إلا في الصفحات الموجهة للنساء الآسيويات. فالمعلومة المتعلقة بالإدمان على الكحول تخاطب النساء الهنديات على وجه الخصوص. والمعلومة المتعلقة بالإدمان على المخدرات تخص بصورة رئيسة الفئة الأسبانية. وهكذا نجد أن مضمون كل رأس عنوان خاص بفئة من الأشخاص، إذ ترتبط بكل فئة مستهدفة مشكلات صحية خاصة مرفقة بتوضيحات تناسب الهدف. ولهذا السبب، ليست كل النصوص متوفرة في اللغة التي تتوقعها الأقلية المعنية، ولا يتيح أي رأس عنوان وصول الفئة المستهدفة وصولاً مباشراً للمعلومة من خلال اللغة.

يساعد تحليل موقع أنجلو سكسوني آخر على تعميق هذه الإشكالية من خلال مثال ملموس يوضح العلاقة بين المجموعات المستهدفة واللغات المستخدمة. ويتعلق الأمر بالموقع الأسترالي المخصص للصحة العقلية.

تعلن الصفحة الرئيسة في هذا الموقع من خلال عنوانها نفسه مقاربتها التثاقفية: Transcultural Mental Health Centre (يمكن الاطلاع على نسخة من الشاشة على الموقع www.guidere.org).

يساعد هذا الموقع بشكل ملموس على رؤية الارتباط بين موضوعات صحية محددة واللغات المتوفرة لإعلام بعض الجاليات بهذه الموضوعات. فالمعلومات حول القلق لدى الطفل، على سبيل المثال، متوفرة باللغة الصينية، والفارسية، والفلبينية،

وليس بالصربية والكرواتية والتايلندية والصومالية. وإن المعلومات حول الأمراض المرتبطة بتسونامي tsunami[٢] متوفرة باللغة الصينية والتايلندية في حين أن المعلومات المتعلقة باكتئاب الأطفال ليست متوفرة بهاتين اللغتين.

تقودني الملاحظات السابقة إلى استنتاج أن ترجمة الرسالة إلى لغة معينة في سياق التواصل متعدد اللغات تشير إلى الهموم الأساسية، وإلى الموضوعات الرئيسة لهدف محدد.

(٣,٢) النموذج الفرنسي

يختلف النموذج الفرنسي على صعيدي النظام الصحي وإستراتيجية التواصل في الصحة العامة عن النموذج الأمريكي الذي قدمت خطوطه الكبرى آنفاً.

أذكّر في أثناء ذلك بأمر قد يفاجئ بوضوحه: إن اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية والدستورية في الجمهورية الفرنسية (المادة ٢ من الدستور). ينتج عن ذلك أن الفرنسية هي اللغة الوحيدة في الوثائق الرسمية والإعلامية الموجهة من المؤسسات الحكومية إلى المواطنين. والواقع أن هؤلاء المواطنين يعتبرون مستخدمين يتم احترام اختلافاتهم من حيث المبدأ، ولكنهم يعاملون بالتساوي، وذلك بغض النظر عن خصوصياتهم الثقافية واللغوية.

إن مبدأ العمل هذا في مجال الصحة يتعارض بطريقة مؤثرة مع مبادئ أخرى: هناك، من جهة، مبدأ حصول الجميع على العناية الطبية، وهو نتيجة طبيعية لمبادئ المساواة وعدم التمييز من جهة، ومبدأ الحق في الحصول على المعلومة الذي يعتبر حقاً أساسياً لكل مريض، والذي يقوم على مبدأ تمكين كل مريض من قبول العلاج والأعمال الطبية المتعلقة به بطريقة حرة وواعية.

---

[٢] تيار بحري في الباسيفيك الغربي ناشئ عن زلزال أو انفجار بركاني. (المترجم).

ثمة تناقض إذن بين حق الجميع في الحصول على المعلومة بمقتضى مبدأ المساواة، وبين معلومة ناقصة لأنها متوفرة فقط باللغة الفرنسية، وهي لغة الإدارة في الجمهورية. وإن كانت "لغات فرنسا" موضوع تقرير رسمي (تقرير سيركيغليني Cerquiglini في عام ١٩٩٩م)، فإن ذلك لم يؤد إلى أي إجراء ملموس بالنسبة إلى مستخدم النظام الصحي الفرنسي. بيد أن المستشفى الحكومي – وأكتفي بهذا المثال – يواجه يومياً إدارة التنوع الثقافي، وأن العاملين في المجال الصحي يواجهون الحواجز اللغوية (تركيم Terquem، ٢٠٠٧م).

وعلى العكس من النموذج الأمريكي، لا يوجد في موقع وزارة الصحة الفرنسية أي رأس عنوان لدخول المجموعات السكانية الخاصة. وإذا قارنا الصفحات الرئيسة في المواقع الأمريكية والفرنسية، فإننا نلاحظ على الموقع الفرنسي وجود رأس العنوان "مواقع الأقاليم" في المكان المحدد للعنوان "مجموعات سكانية خاصة" Specific Populations على الموقع الأمريكي. بيد أن التكييف الوحيد على الموقع الفرنسي – بالمعنى الدقيق – يظهر في العنوان المخصص للأقاليم. ولكن لماذا تم اختيار "إقليم" بدلاً من "عرق" ethnie كمعيار لتكييف التواصل في النموذج الفرنسي؟

إن الإجابة عن السؤال السابق قانونية: تم منذ قرارات جوبيه Juppé في عام ١٩٩٦م اعتبار المنطقة مستوى للتنظيم الصحي في فرنسا. وهكذا، تُنظم الخدمة الصحية على المستوى الإقليمي وكالات إقليمية، وتشكل لهذا السبب مواقع الويب Web الإقليمية مكاناً تتجلى فيه جهود التكييف التواصلي.

يمكن في هذا المنظور ملاحظة مثالين من مواقع الويب التي تحيل إلى أقاليم قوية الهوية: كورسيكا la Corse وبروتانيو la Bretagne.وهذان الموقعان جديران ببعض الملاحظات من وجهة نظر تواصلية.

إن موقع الإقليم الكورسيكي لا ينطوي على أي علامة مميزة باستثناء خارطة كورسيكا الموجودة على الشريط الأمامي في أعلى الشاشة. ونجد ثانية، كما في المواقع الأخرى، أولوية الصحة العامة في الصفحة الرئيسة. وقد تم تحديد هذه الأولوية على المستوى الوطني، وكانت تتعلق، في تلك الفترة، بمحاربة الإدمان على التدخين.

وعلى العكس من ذلك، ينطوي موقع إقليم بروتانيو la Bretagne على مخطط رسوم مختلف، ويظهر حضوراً ضعيفاً للغة البروتانية من خلال عبارة الترحيب على الموقع ("Degemer mat e Breizh"). ولكن أولوية الصحة العامة على المستوى القومي تظهر ثانية أيضاً على صفحة الموقع الرئيسة (محاربة الإدمان على التدخين). وعندما نتصفح مختلف المواقع الإقليمية نكتشف أن تكييف المضمون التواصلي يتم أساساً وفق معايير جغرافية، وليس عرقية البتة. ويتم التواصل وفقاً لخصائص مثل القرب من البحر، ومن الجبل، أو مشكلات مرتبطة بالحياة الريفية. ويخصص الموقع البروتاني بذلك عنواناً مستقلاً لأوقات الراحة الممكنة في الإقليم.

خلاصة القول: إن النموذج الفرنسي، خلافاً للنموذج الأمريكي الذي يتوجه فيه التواصل إلى أقليات وجاليات، يؤكد أهمية الأقاليم والمدن. وإن المشكلات الصحية بالنسبة إلى الأمريكيين تتعلق بالجماعات العرقية، في حين أن الأقاليم في فرنسا هي التي تثير المسائل (الطقس المحلي، وظروف الحياة، والتلوث الجوي، إلخ). إن الجماعات والجاليات السكانية مستقرة في واقع جغرافي يشكل معلماً يفيد في توجيه التواصل، مثل انتقال الحق في الأرض في مجال العلاقات الإنسانية. إنها قبل كل شيء في التصور الفرنسي أراض تسكنها مجموعات معينة (الضواحي، والجزر، إلخ) التي تثير مسائل خاصة ناجمة عن موقعها الجغرافي (تلوث الماء، والفيضانات، والأوبئة، وموجات البرد، والجفاف، إلخ). وأما في النموذج الأمريكي فمن الواضح أن التواصل يهدف بلوغ مجموعات سكانية معوزة وتوعيتها. وعلى العكس من ذلك، لا يقوم

النموذج الفرنسي على الهموم نفسها ولا على المبادئ الغامضة. إن تكييف التواصل وفقاً للأقاليم يقوم على مبدأ عدم التمييز بين المواطنين الذي ينص على أنه ليس هناك داع في إقليم معين التمييز بين السكان مهما كانت أصولهم وخصوصياتهم.

لم يكن هناك حتى عام ٢٠٠٧م في مواقع الويب الفرنسية أي تكييف للتواصل وفقاً للأقليات العرقية، وللمجموعات السكانية الخاصة، وللغات الأصل، ولثقافات الجاليات. ومع ذلك، إن أخذ هذا التنوع اللغوي والثقافي بعين الاعتبار يمثل أهمية مؤكدة: يتعلق الأمر بتسهيل تحمل مسؤولية السكان من الأقليات أو من الضعفاء، وذلك بالتواصل حول مشكلات خاصة يمكن أن تتعلق بهم. وإذا كان الهدف من هذه الطريقة تحسين صحة هذه المجموعات الخاصة، وفيما وراء ذلك، صحة السكان بمجملهم، فإن التواصل يصبح هدفاً حقيقياً للصحة العامة.

(٤) تبين الوضع

إن اللغة في الأشكال المتعددة للتواصل المعاصر لا تنفصل عن الثقافة لأن الإنسان يوصل الكم نفسه من الكلمات، والأفكار، والقيم. وقد فتح خبراء التواصل بين الاتجاه العرقي والنسبية الثقافية طريقاً وسطاً تساعد على نقل الرسالة نفسها بعدة لغات باحترام الهويات المحلية: إنها طريق التواصل الثقافي. فالبحث عن الأبعاد الكونية للتواصل يساعد بذلك على تصور حلول مناسبة للحواجز اللغوية الراسخة حتى في المعالم المكانية–الزمانية. ولكن المشكلات في الحياة العملية تستمر وتظهر أحياناً أيضاً بشكل أكثر حدة عندما نتناول بعض المجالات الحساسة (الدين، والأمن، والصحة والأقليات، إلخ).

وهكذا تواجه السلطات الحكومية والعاملون في مجال الطب والصحة العامة باستمرار التعددية الثقافية. وإن هذا التعدد الثقافي يدار عامة من خلال التواصل الذي

يسعى لأن يكون متعدد اللغات، ولكن ممارسات هذا التواصل تختلف اختلافاً كبيراً من دولة أخرى، ومن منشأة لأخرى. يسود في الولايات المتحدة الأمريكية نموذج تفاضلي différentialiste يأخذ علماً بالتنوع اللغوي والثقافي للمواطنين ويتواصل تبعاً لما يقتضيه الأمر، في حين يسود في فرنسا النموذج التكاملي الذي يتواصل انطلاقاً من نقاط ومشكلات مشتركة بين المجموعات بدلاً من اختلافاتها الذاتية.

إن هاتين المقاربتين توضحهما في مجال التواصل إدارة مختلفة لعملية تصور حملات التوعية وتنفيذها. وإن تكييف التواصل، سواء بين اللغات interlingue أم ضمن اللغات نفسها intralangue، يتم بصورة مختلفة جذرياً. يؤكد البعض الشفرة اللغوية، بينما يؤكد البعض الآخر الرموز الثقافية. وهكذا يمكن بالنسبة للموضوع نفسه تصور تواصل متعدد اللغات يتم بين ثقافات مختلفة أو تواصل عرقي المركز ethnocentrée، برهاناً على أن التواصل مسألة إدراك حسي وتمثل قبل كل شيء.

(٥) من أجل التعمق في الموضوع

– حول الإشكالية الثقافية في الترجمة والتواصل:

Forstner M. et Lee-Jahnke H. (éds) (2006), *Regards sur les aspects culturels de la communication*, CIUTI-Forum Paris 2005, Berne, Peter Lang.

– حول التواصل بين الثقافات:

Ladmiral J.-R. et Lipianski E.-M. (1989), *La Communication interculturelle*. Paris: Armand Colin.

– حول تعدد الثقافات بعامة:

Semprini A. (1997), *Le Multiculturalisme*, Paris: PUF.

– حول التعددية اللغوية بعامة :

Boyer H. (1997), *Plurilinguisme: "contact" ou "conflit" de langues?*, Paris: L'Harmattan.

– حول التواصل الطبي بعامة :

Ogrizek M., Guillery J.-M., Mirabaud Ch. (1996), *La Communication médicale*, Paris: PUF.

(٦) اختبر معارفك

(أ) ما الذي يخفيه مفهوم الثقافة في التواصل متعدد اللغات؟

(ب) اشرح باختصار المفاهيم الخصوصية والعمومية للثقافة.

(ج) ما هي الميزات الرئيسة للتواصل بين الثقافات؟

(د) ما العلاقة بين الترجمة والتواصل الثقافي؟

(هـ) اشرح باختصار الفرق بين التعددية اللغوية وتعدد الثقافات.

(و) اشرح باختصار مداخل النموذج الفرنسي للتواصل متعدد اللغات ومخارجه.

(ز) ما رأيك بالنموذج التثاقفي للترجمة والتواصل؟

obeikandl.com